المصحف الشريف : دراسة فى خطوطه وفنونه

من بدايته حتى سقوط الخلافة العباسية

(مجموعة دار الكتب والوثائق القومية)

أمنية عامر

« ما من كلمة كتبت إلّا لتقرأ »

تعدّ الكتابة مظهر نشاط إنسانى بدأ مع الإنسان منذ أقدم عهوده على الأرض ، ذلك لأن الكتابة فى جوهرها تشكّل وسيلة من وسائل الاتصال والتواصل بين الأجيال ، وفى المرحلة التى استشعر فيها الإنسان أن له تاريخاً ينبغى ألّا ينقرض ، ظهرت الكتابة كوسيلة لنقل هذا التاريخ إلى الأجيال التالية لقراءتها واستيعابها والإفادة منها ، ومن ثم إدماجها فى تجربتهم الحياتية لتكون امتداداً واستمراراً لمن يتعاقب بعدهم من الأجيال .

لقد كانت هذه القضية هى نقطة الانطلاق لموضوع الدراسة الذى يرتبط بخطوط وفنون المصحف الشريف من بداية تدوينه حتى سقوط الخلافة العباسية ببغداد ، وذلك بالنظر إلى أن دراسة خطوط المصاحف وفنونها لم تحظ إلّا بجهود متفرقة ، فى سياق معالجة تطوّر الخطوط ؛ والأمر كذلك بالنسبة للفنون ، فإن دراسة فنون الكتاب عامة ، وفنون المصاحف خاصة ، تكون عرضية من خلال التعرض لفنون الكتاب .

وقد كان تحديد مجموعة المصاحف التى ستتم عليها الدراسة ضرورياً لسببين : **أولهما** : ندرة الدراسات المعروفة التى تتناول دراسة مجموعة بذاتها دراسة خطيّة وفنيّة ، **وثانيهما** . يمثّل هدفاً فى ذاته ، وهو التعريف بمجموعة المصاحف التى تقتنيها دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، وهى مجموعة ، وإن كشف النقاب عن بعضها ، إلّا أن بعضها الآخر كان لا يزال غير معروف .

إن هذه الدراسة تمثّل لبنة جديدة فى موضوع دراسة المخطوط العربى ، ذلك لأنها تسدّ ثغرة فى مجال دراسة تطوّر خطوط وفنون المصحف الشريف — الذى يعّد أول مخطوط اسلامى فى بلاد العرب — ورغم أنّ هذه الدراسة لا تنتهى إلى أى أحكام مؤكدة أو قوانين ثابتة فيما يتعلق بتطّور خطوط وفنون المصاحف ، لأنها لا تغطى كل المصاحف التى دوّنت فى نفس الفترة الزمنية موضوع الدراسة .

لقد كان من اللازم تحديد الفترة الزمنية التى تقع فى حدودها الدراسة ، وكانت البداية المنطقية هى القرن الأول الهجرى ، أى تاريخ ظهور أول مصحف ، أما نقطة التوقف فهى سقوط الخلافة العباسية ببغداد سنة ٦٥٦ هـ ، وهى تمثّل حداً تقف عنده الدراسة ؛ إن هذه الفترة تمثّل ثلاث مراحل مرّ بها الخط العربى ،

أولها : مرحلة النشأة تأثراً بما كان سائداً قبلها ، وتدرّجها حتى وصلت إلى الشكل العربى الخالص ، الذى برز بشكل خاص فى الخط المعروف بخط كوفى المصاحف ، الذى ظل هو الخط المفّضل فى نسخ المصاحف طوال القرون الأربعة الأولى للهجرة ،

وثانيها : مرحلة التطوّر مروراً بنقط الشكل ونقط الإعجام ، ثم الإعجام بالخطيطات تمييزاً عن نقطة الشكل ، وأخيراً استبدال الحركات الإعرابية المعروفة لدينا اليوم بنقط الشكل ،

وثالثها : مرحلة النضج والاستقرار التى أرسيت خلالها قواعد الخطوط الدينية ، التى تختلف عن الخط اليابس ، وأصبحت المصاحف تنسخ بخطوط النسخ والثلث والمحقّق والريحان .

أما الأساس الموضوعى الذى بنيت عليه الدراسة فمجموعة من القضايا التى تتلخص فيما يلى :

١ — أهمية الكتابة وضرورتها ودورها فى تشكّل المجتمع .

٢ — تدوين المصحف الشريف ، وما استتبع هذا التدوين من تطور فى شكل المجتمع العربى وبناء حضارته .

٣ — دراسة مجموعة المصاحف التى تم اختيارها للدراسة : دراسة وصفية ثم دراسة تحليلية لأشكال الخط وأنماط الفن التى تضمنتها تلك المجموعة .

استهلّت هذه الدراسة بعرض موجز لأهمية الكتابة كظاهرة اجتماعية ، مع التعريف بالعلم الذى يرصد هذه الظاهرة ، وهو علم الكتابة العربية الذى يدرس الكتابات الخطّية القديمة .

إن علم الكتابة العربية PALEOGRAPHY متّصل أساساً بعلم الدبلوماتينا ، العلم الذى يضطلع بدراسة الوثائق الرسمية والخاصة ، بالإضافة إلى أنه يعّد أداة أساسية من أدوات دراسة الكتابات الخطّية على الآثار والنقوش والنميّات والرنوك والأختام ، بذلك ، فإن العلوم التى تتناول دراسة هذه المواد تفيد إفادة كبيرة بمساعدة علم الكتابة ، هذا بالإضافة إلى أن هذا العلم متصّل اتصالا وثيقا بدراسة الأشكال المختلفة للمخطوطات ، الأمر الذى عُرف فى أوروبا بعلم المخطوطات CODICOLQY ، والمصحف أول كتاب إسلامى مخطوط ، وبالتالى فإن دراسة خطوط المصاحف تقع فى دائرة علم الكتابة العربية .

استتبع هذا التمهيد مجموعة من المقدّمات النظرية العامة ، التى تتناول علاقة الكتابة باللغة ، والدور الذى تؤديه ظاهرة الكتابة فى مجال تطوّر المجتمع والحضارة بشكل عام ، وقد كان تدوين آيات النص القرآنى أمرا له ما يبرّره ، وذلك لهدف حفظه من الضياع ومن النسيان ، كما أن تدوين كلام الله فى حد ذاته يعّد حدثاً تاريخياً ذا أهمية خاصة فى التاريخ الأسلامى ، لأن المصحف كان أول نص مجموع بين دفّتين عرفه العرب كتراث خاص بهم ولهم ، الأمر الذى جعل المصحف هو حجر الزاوية فى بناء الحضارة الاسلامية بوصفه المصدر الأول للتشريع . ومع اتساع الرقعة الأسلامية كان المصحف الشريف — شكلاً ومضموناً — ملازماً لهذا الانتشار ، حتى وصلت حدود هذه الدولة إلى حدود الصين شرقاً وإلى الأندلس وحدود أوروبا غرباً ؛ هذا وقد تناولت الدراسة تاريخ تدوين القرآن منذ العهد النبوى ، مروراً بعهد الخلافة الراشدة الذى ظهر فيه المصحف الإمام أو المصحف العثمانى الذى جمع المسلمين على قراءة واحدة ، انتهاء بإرساء قواعد الكتابة العربية أبان القرن الثانى الهجرى على يد الخليل بن أحمد الفراهيدى الذى أبدل الحركات الإعرابية المعروفة لدينا اليوم بنقط الشكل ، وهو الاصلاح الأخير الذى طرأ على الكتابة العربية .

أما الدراسة الوصفية لمجموعة المصاحف ، فإنها تعتمد المنهج الوصفى الموجّه الأساسى فيه هو المجموعة بذاتها ، ولا يعتمد فى دراستها على أى فروض مسبقة ، وإن كان ذلك لا يتعارض مع التعّرف على مصاحف من مجموعات أخرى لما قد تتطّلبه الدراسة الوصفية كلّما كان ذلك متاحاً .

وقد سبق الدراسة الوصفية جدول بمجموعة المصاحف التى تمت عليها الدراسة ، أمكن فيه حصر ثمان وأربعين (٤٨) مصحفاً ، تمت الدراسة على أربع وأربعين (٤٤) منها ، وتفصيلها :

* أربعة (٤) منها مسجّلة بفهارس الدار ولكنها مفقودة .
* تسعة عشر (١٩) مصحفاً فى مخزن الرصيد بقسم المخطوطات بالدار .
* خمسة وعشرون (٢٥) مصحفاً فى معرض القرآن الكريم بالدور الأول بمبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ولقد اشتملت الدارسة الوصفية للمصاحف على إعداد فهرسة كاملة لكل مصحف على حدة ، تمثلها البنود التالية : رقم المصحف (كما هو مسّجل فى فهارس الدار) ، أبعاده ، مسطرته ، عدد أوراقه ، المادة المكتوب عليها ، نوع الخط ، صفحته الأولى ، صفحته الأخيرة ، اسم الناسخ (من أماكن الإتاحة : المصحف نفسه ، أو الفهرس) ، تاريخ النسخ

(من المصحف نفسه ، أو الفهرس ، أو التاريخ التقديرى) ، التجليد ، وأخيراً الملاحظات العامة التى تميز كل مصحف عن الآخر .

وقد كان أول تاريخ شبه معروف فى هذه المجموعة لمصحف مستنسخ من نسخة محفوظة « بالكتبخانة العمومية الملوكية ببطرسبرج » (لينينجراد حالياً) ، الذى تنص البيانات المأخوذة عنه بأنه مصحف الخليفة الثالث عثمان بن عفان (رضى الله عنه) مما يرجّح معه بأنه من مصاحف القرن الأول الهجرى ؛ أما آخر تاريخ لمصاحف هذه المجموعة فإنه يرجع إلى سنة ٦٣٥ هـ . أى قبل سقوط الخلافة العباسية ببغداد بحوالى ٢١ سنة .

ومن خلال الدارسة التحليلية للمصاحف ، وُجد أن ثمانية وثلاثين (٣٨) مصحفاً منها قد نُسخ بالخط الكوفى ، واثنين (٢) بالخط النسخ ، وثلاثة (٣) بالخط الريحانى ، وواحد (١) بخط الإجازة الذى يجمع فى قاعدته الخطّية بين خطّى النسخ والثلث .

بناء على ذلك ، فقد تم تقسيم الدراسة التحليلية إلى ثلاث مجموعات ، هى :

١ — مجموعة الخط الكوفى : تنوعت خطوط مصاحف هذه المجموعة ما بين خط كوفى الشق ، وخط كوفى مائل ، وخط كوفى المصاحف ، والخط الكوفى المشرقى* ؛ وما تتميز به هذه المجموعة هو التأثيرات النبطية الواضحة فيه ، متمثلة فى امتداد حرف الألف يمنياً فى أسفله ، وحذف حرف الألف من بعض الأسماء والأعلام ، كما يتميّز هذا الخط بأن النسب بين حروفه متساوية ، كما أن المسافات بين سطوره متناسبة إلى حد كبير .

٢ — مجموعة الخط الكوفى المغربى : الذى يتميّز عن المجموعة السابقة بأنّ عراقات حروفه تمتد للامس مدّات السطر الذى يليه ، وذلك رغم وضوح طريقة رسم الخط الكوفى فيه ، ويبوسة حروفه بشكل ملحوظ .

ومن أبرز مميّزات الخط الكوفى المغربى أيضاً ، طريقة رسم حرفى الفاء والقاف : فنجد أن نقطة حرف الفاء تكون نقطة أسفله (ب = ف) ، أما نقطتا حرف القاف فإنها تختزل فى نقطة واحدة أعلاه (ف = ق) .

٣ — مجموعة الخطوط النسخية والثلثية : لقد كان السبب فى إدماج الخطوط النسخية والثلثية فى مجموعة واحدة هو أنها تتشابه فى أنّ لها نظاماً هندسياً وحسابياً ابتكره الخطّاط الشهير ابن مقلة ، وذلك فى أوائل القرن الرابع الهجرى ؛ ويقوم هذا النظام على أساس ثلاث وحدات معيارية هى النقطة والألف والدائرة ، وبهذه القاعدة الخطّية نجح ابن مقلة فى إعطاء فن الكتابة قواعد علمية محدّدة ينسب بموجبها كل حرف للوحدات المعيارية الثلاث ، ومنها خرجت خطوط النسخ ، والثلث وفروعه : الريحان والمحقّق ، وهى خطوط وإن تشابهت فإنّ لكل منها خصائص فنيّة تميّز كلاً منها عن الآخر .

أما الفصل الذى اختصّ بدراسة الفنون التى تضمّنتها المصاحف فقد بدأ بتقديم موجز ، تكمن أهميته فى أن الفن الإسلامى كان ذا طابع مميّز لعدة أسباب ، من أهمها أنّه أولاً : يعّد فناً إسلامياً وليس عربياً ، ذلك لأنه لم يعرف — حتى الآن — نمط أو شكل فنّى متميّز لدى العرب قبل الإسلام عُرف بهم أو عُرفوا به ، أما ثانياً : فهو أن الفن الإسلامى نتاج لتزاوج عدة أنماط فنية راسخة موغلة فى العراقة والأصالة ، لعل أبرزها الفن الساسانى والفن البيزنطى ، وثالثاً أن الفن الإسلامى لم يلتزم بكل الجزئيات والتفاصيل الناتجة عن ذلك الاندماج ، ذلك لأن الصفة التجريدية التى فرضها الإسلام كانت سبباً فى تميز الفن الإسلامى بالزخارف النباتية والتراكيب الهندسية ، وكذلك الإبداع الخطّى الذى يعدّ تفرّداً غير مسبوق فى مجال الفنون . هذا ، وقد برع الفنانون المسلمون فى الجمع بين الفنون . هذا ، وقد برع الفنانون المسلمون فى الجمع بين الزخرفة النباتية والهندسية ، واشتهر هذا المزج الفنّى بهم ، وأطلق عليه لفظة « أرابسك » ARABESQUE تضمنت مجموعة المصاحف موضوع الدارسة أشكالاً من الفنون الزخرفية ، وتنوعت فواصل الآيات بين الخطيطات القصيرة المتوازية ، إلى شكل الزهرة الصغيرة ROSETTE ؛ كما تدرّجت علامات الأخماس والأعشار ، من مجرد لفظة « خمس » أو « عشر » وصولاً إلى شكل الدوائر المتداخلة ( ) ؛ وتجلت ألوان الفنون أيضاً فى مواضع السجدات وبيان الأحزاب وبدايات الأجزاء ، كما تعرضت الدراسة التحليلية للفنون لأساليب التذهيب والتجليد ، حيث أنها لم تكن من الفنون الإسلامية الخالصة ، إلّا أنها اتّخذت طابعاً مميزاً بعد فترة ، وكان للمصاحف نصيب وافر منها .

* هذه التنويعات الخطيّة للخط المعروف بالكوفى تختلف عن أنواعه الأساسية وهى : البسيط والمزهر والمورّق والمضفّر والهندسى .

اختتمت الدراسة بواحد وسبعين لوحة ، أغلبها لوحات ملونة توضح صفحة أو صفحات من المصاحف التى كانت موضوعاً للبحث ، وكذلك بعض لوحات لجلود المصاحف ، وتضمنت اللوحات حوالى سبعة عشر لوحة لمصاحف لم يسبق نشرها .

يلى اللوحات أحد عشر شكلاً توضح بعض الأنماط الفنيّة المتميزة التى وردت على صفحات بعض المصاحف ؛ وأخيراً اثنى عشر جدولاً يوضّح أشكال الحروف فى كل مصحف على حدة ، ومن جهة أخرى توضّح ما تميزت به تلك الأشكال عن بعضها فى الخط الواحد .

لقد كشفت هذه الدارسة عن مصاحف لم تُدرس من قبل ، خاصة المصاحف التى نسخت بالخط الكوفى المشرقى الذى تعد نماذجه نادرة على مستوى العالم ، كما تضمّنت هذه الدارسة مصحفاً منسوباً لابن مقلة ، وتلك مسألة خطيرة ، ذلك أنه لم يُعثر على أى مصحف أو أجزاء من مصحف صحيحة النسبة إلى ابن مقلة ، لذا فإن تأكيد أو نفى نسبة ذلك الجزء إليه أمر بالغ الصعوبة
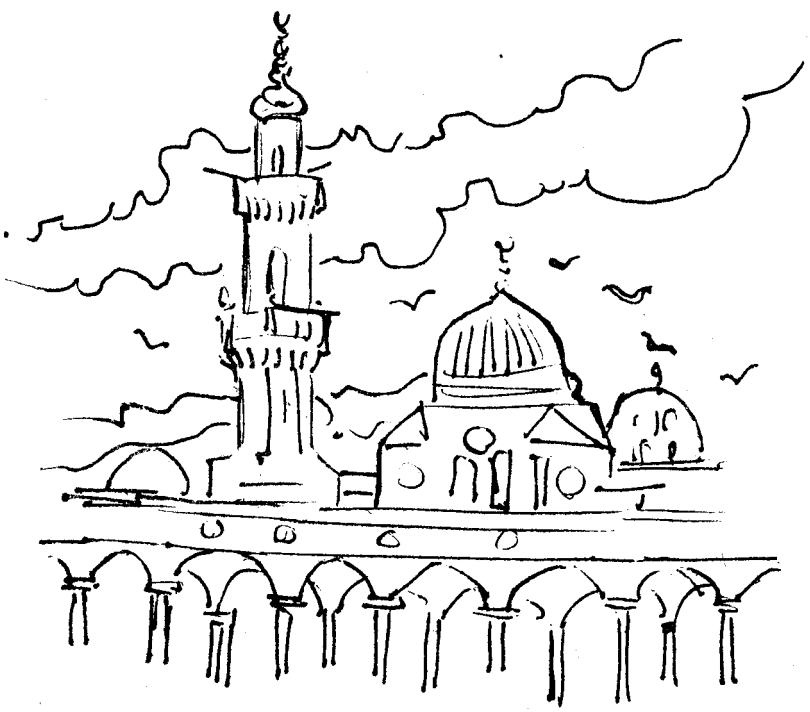
أكّدت الدراسة أيضاً أن المصاحف — كشكل من أشكال المخطوطات — تعد مصدراً خصباً لا يمكن إغفاله للإطلاع على تطوّر الخط ، لأنّ المخطوطات عامة لم تكن تلق تلك العناية الخاصة التى أوليت للمصاحف ، وكذلك للوقوف على الأنماط الفنية التى برع فيها المسلمون وأتقنوها ، إذ كانت المصاحف — تحديداً — مجالاً ممتازاً للفنان المسلم ليبتكر ويبدع ويجيد .